

سر القدر في القرآن الكريم(٦):

فضيلة الشيخ ابو قتاده الفلسطيني حفظه الله

قال تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ لَنْ نُصِيبَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِرُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا ۚ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَتَاءُوا بِعَصَبِ مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَعْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) البقرة

للنعم أقدارها، وسننها في البقاء والزوال، ويجب على العبد مراعاة ذلك، ليحفظ بقاء النعمة، أو يحقق قدومها إن غابت عنه، وهذه الأقدار تخالف أهواء الناس، والعاقل من لا يتابع هواه، ولا يضع ما ينفعه من أجل شهوته. النفس البشرية في فطرتها تحب التغيير، ويصيبها الملل مع جريان العادة، حتى لو كانت في النعيم، ولكن هذا له ضربته ونمته.

في هذه الآية بين سبحانه نعمه على بني اسرائيل، وذلك بنزول المن والسلوى عليهم، يأكلون وينمتعون، ولكن تآقت نفوسهم لحال آخر، وطعام قديم قد القوه، مع أنه مرتبط هذا الطعام القديم بحال الذلة والهوان، فبان للناطر أن هذا الشوق لما هو أدنى من الطعام هو رغبة بتغيير الحال كذلك، وذلك لهوان هذه النفوس واستمرائنها الذلة، فكان لهم ما طلبوا. تطلبك لحال ما يرتبط بشهواتك يعني دفع الثمن من قيمتك في الحياة، ولا يعني هذا أن الحال الآخر هو خير لك في نفسه، بل قد يكون أدنى وأسفل.

ما هو مطلوب هو الصبر، فعلة مطلب بني اسرائيل: (لن نصبر).

البحث عن حال آخر له ارتباط في المقام، وله تعلق بقيمة المرء في الدارين ليس سيئا، بل هو أمر مرغوب به شرعاً، ولكن الحديث هنا عن اللذة، (الطعام)، وهذا يسيطر على أصحاب الأهواء، حتى يكون مطلب بطونهم أهم من كونهم أدلة أو أعزة، وهذا هو الخبز المنهي عنه شرعاً. القدر مخبوء وراء اختيارك، وسره مرتبط بقلبك، أحساناً بإحسان، وشرراً بشر، فمن طلب شهوة بطنه دفع ثمنها ذلة وهواناً، ومن طلب مطلب قلبه تعب ولكن أصاب عزة ومقاماً.

ارتباط القدر بالمعاني سر مجهول لدى الخلق، فالأكثر ينتهون لارتباط العمل الموصل للنتيجة، فمن جد وجد، ومن طلب الشيء من خلال سننه وصل إليه، لكن يجهلون ارتباط المعاني بما في نفوسهم. واحد يطلب المال، فيعمل له، فيصل إليه، ولكن هل يفهم سر القدر في حاله ومقامه بعد الحصول على المال. القرآن قال لبني اسرائيل (فإن لكم ما سألتكم)، فما أردته ستأخذها، (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) ولكن هناك حيث يتحقق له ما سأل شئ آخر (وضربت عليهم الذلة والمسكنة). لا تغفل النظر إلى الغني، ولا تغفل النظر لصاحب الجاه، أن لهم من هذه الأحوال حين سعوا إليها بوسائل الشر. وحين نقول: طلبها بوسائل الشر، لا يقصد بذلك العمل ونوعه فقط، ولكن مع ذلك، وهو مهم جداً، يكون معاني القلوب.

معاني القلوب لها دور عظيم في اختيار نوع الحال الذي تكونه بعد الوصول لمطلوبك. لقد تأملت هذا في أقدار العاملين للإسلام، فوجدت أن صلاح النية له أكبر حظ في إصابة المراد، حتى وهذا المراد يغيب في لحظته الأولى، لسنن تتداخل على المطلوب، ومِمَّا لا شك فيه أننا نتحدث هنا عما هو من باب الرأي، وما هو الحسن والأحسن.

اشتغال الناس بالسنن الظاهرة لا يعيب، وليس من الخطأ، فيه يقترب المرء من معرفة المآلات، وبها يقع تصويب الفعل وطلبه واختياره، ولكن يجب التنبيه على عامل النية والقصد (إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم) وهذا وهم في الأسر والقيود لقوله تعالى (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى). النية تصوب الفعل، وتهده إلى التوفيق الإلهي، ولذلك يعجز البعض عن رؤية الخير المنبثق من الشر، كما قال سبحانه وتعالى (إن الذين جاؤوا بالأفك عصبة منكم، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم). وهنا يبرز حديث: هل يأتي الخير بالشر؟ وهو حديث جليل، لا بد من تدارسه وفهمه، ويبقى السؤال: هل يأتي الشر بالخير.

كم من أقدار جاءت في بدايتها بالألم، وأصابها بالتعب والشر والمصائب، ثم كانت كالنار التي تورث الكثير من سواد الأرض، وبنيت منها الخير العظيم.

ما ضابط هذا؟

إنه نية الفاعل الصالحة.

وهذا مدخل لقضايا متعددة، اللهم أعن على جلائها وبيانها.

نشر المقال بتصرف مع حفظ حقوق النشر كامله لفضيلة الشيخ ابو قتاده

غرفة الفجر الاسلاميه - موقع العلم والمعرفة www.ilmway.com